البيــئة الثقافيــة

بيئة الإنسان من أهم مكوناته . ولكل إنسان بيئته الطبيعية : مكانه الذي يضطّرب فيه ، وجوّه الذي يشتمل عليه . وبيئته الاجتماعية : الناس الذين يعايشهم ويعاملهم وتربطه إليهم مختلف الروابط . وما يقرؤه الإنسان أيضاً هو له بيئة تؤثر في فكره وعواطفه ومسلكه في الحياة ..

وما أزال أذكر كيف كنا نجتمع صغاراً على سيرة عنترة بن شداد نقرؤها فنحب الشجاعة والوفـــاء في عنتـــرة ، ونكره الجبن والغدر في عمارة بن زياد ، وكيف كانت تهتز قلوبنا وتدمع عيوننا وتستولي علينا السيرة حتى أننا لنكاد ننسى زماننا ومكاننا ونرتد إلى زمانها ومكانها .. فإذا نحن ثبنا إلى أنفسنا ، وانصرفنا إلى المعتاد من حياتنـــا ، رأينـــا أنفسنا نقلد الأبطال الذين أعجبنا بهم ، ونمثل أخلاقهم ، ولربما صنعنا لأنفسنا سيوفاً -كسيف أبي حيّة- من الخشب فجدَّدْنا معاركهم ، ولا أنسى رفيقاً لنا أعجب (بالغضبان) ابن عنترة أشد إعجاب ، جاءنا يوماً على حالة من الحزن شديدة وهو يبكي أحرّ بكاء لأن أباه قد منعه من كسر أنفه ليصير أفطس مثل أنف الغضبان !

ونحن الآن نرى أثر ما نقرؤه لبعض المفكرين والأدباء والعلماء المسلمين الممتازين في تصحيح فهمنـــا ، وتقـــويم اتجاهنا ، وشعورنا بما لنا في فهمنا وعملنا من أخطاء .

ومن أهم ما نقرأ ومن أشده تأثيراً كتب الأدب والتاريخ ، كتب الأدب تصعد بنا بأجنحتها إلى ما هـــو أسمـــى وأكمل ، وترسم لنا مثلاً ، وتكشف لنا طرقاً ، وتضرب بمعولها الواقع القائم لينهار ويقوم مقامه الواقع المنـــشود .. هذه الكتب كم ولدت من ثورات وأحدثت من انقلابات في المجتمعات والأفكار ..

وكتب التاريخ فيها نجد القدوة الصالحة والحافز القوي والأسوة الحسنة في الكفاح .

ولربما فسدت بيئة الإنسان الاجتماعية فضلّت فكراً ، وانحلّت خلقاً ، وانحرفت سلوكاً ، فكانت بيئته (الثقافيـــة) عاصماً له مما أصاب مجتمعه ، ومدداً لفكره وروحه ، وعوناً على استبانة الطريق المستقيم .

وأفضل بيئة للمسلم يعيش فيها هي القرآن الكريم وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلّم وأصحابه ، يجد فيهم مـــا أعوزه في مجتمعه من القدوة الحية والأسوة الحسنة ، ويتنفس في جوهم ، ويحيا معهم إيمانهم العميـــق ، ومـــشاعرهم السامية ، وأخلاقهم الفاضلة ، وجهادهم الدائم في سبيل الله ، كما يرى الإسلام فيهم مجسما .. يراه بعينه ، ويحـــسه بقلبه وفكره .

ولكن هذه البيئة التي يفتقر إليها المسلم لحياة روحه ، ومعرفة هدفه ، وتبين طريقــه ، تكــاد تكــون محجوبــة الأسرار ، مقفلة الأبواب على من لا يملك مفتاحها .. وما مفتاحها إلاّ العربية التي يتوجب علينا إتقانها لتكون منفذنا إلى فهم القرآن والحديث وذوقهما ودخول عالمهما الذي يُصنع فيه المسلم الحقُّ عقيدةً وفكرة ومسلكاً ووجهة نظــر معينة إلى الكون والحياة والإنسان .

وقد فسد مجتمعنا الذي نعيش فيه ، واشتدت حاجتنا إلى البيئة الثقافية (الإسلاميّة) التي تعيننا عليه ، وتغذي فكرنا وشعورنا ، وتعوضنا مما فقدنا .. ولم نجد هذه البيئة المنشودة ، بل وجدنا بيئة ثقافية أخرى هي في الغالــب صــورة الضلال العقلي ، والفساد الاجتماعي ، وصدى الغرائز البهيمية أو المآرب المتّهمة ، تنفذ إلينا من الكتاب الذي نقرأ ، والمجلة التي نتصفح فتسمم الفكر والخيال ، وتفسد الأخلاق .. ولو أن دارساً تَقَصَّى ما يقرأ في أوساط الشباب لكاد لا يرى إلاّ فكراً مدخولاً أو معرفة مريبة أو قصصاً رخيصاً ، أو أخبار الممثلات والممثلين وأنباء اللهو واللاهــين ، أو شعراً هو صوت الغريزة ونداء المنكر ودعوة الانحلال .. هذه تقريباً هي بيئة عامة الشباب الثقافية أي بيئة أفكــارهم وقلوبهم ..

وليس مرد هذا إلى أن الشباب قد فسد فأصبح يؤثر هذا اللون من القراءة فقط ، فإن ثمة شباباً ما يزالون ينطوون على خير ، وما يزال عندهم الاستعداد ليكونوا كما يريد لهم الإسلام ، ولينفصلوا عن واقعهم الفاسد لا يــستمدّون منه ، ويعيشوا في جو الإسلام بمطالعتهم يستمدّون من حقائقه ، ويستلهمون من رجاله ، ما يمكنهم من العــودة إلى واقعهم متحررين منه ، ليكيفوه حسب عقائدهم أو يهدموه ليقيموا الصرح الإسلاميّ الجديد .. ولكن المشكل أننا لا نجد هذه البيئة الثقافية الإسلاميّة الحديثة التي تلبّي حاجة الفكر المسلم ، والشعور المسلم ، والمعرفة الإسلاميّة .. لا نجد الكتب الإسلاميّة أو المجلات التي يمكن أن ندفعها إلى الشباب المسلم وتكون دليلــه الأمــين في حياتــه الشخــصية والاجتماعية ، وفي فهم مشكلات عصره المختلفة في ضوء الإسلام ، وتكون رفيقه الصالح ، وتكون سميرَه الممتــع ، وتكون سبيله إلى إتقان لغته (لغة القرآن) ، ويجد فيها حاجة الفكر والقلب ، وحاجة النفس إلى الترفيــه في حــدود الإسلام وحسب هديه وأدبه .. لا نجد هذه الكتب والمجلات بالمقدار الكافي الوافي بالحاجة الماسّة –على قيمة بعض ما صدر من كتب في بعض جوانب الإسلام–

إننا نريد هذه الكتب والمجلات .. ونريد أدباً إسلامياً يكوّن وعياً (إسلامياً) عميقاً ، ويصبّ الحماسة في قلــوب الشباب ، ويشير لهم إلى الهدف ، ويستحثهم في الطريق ، ويستجيش كل الطاقة الكامنة فيهم ..

نريد مقالات ومسرحيات وروايات .

نريد قصصاً تصور واقع المسلمين المؤلم والظلم الواقع بهم تصويراً ينضح الدم لا الدمع ، ويدعو إلى الثورة علــى الواقع وإلى الانتصاف والعودة بالإسلام إلى مكانه القديم .

نريد تاريخاً وأقاصيص تصور للناس ما فعل الإسلام الذي جهلوه للدنيا ، وتَردُّ عليهم مـــن عظمتـــه وعدالتـــه وإصلاحه ورحمته ما يحرك القلوب .

نريد تراجم تلهم الشباب وتعلمهم بالمثل كيف يكون الإيمان والجهاد والتضحية والصبر ، وكيف ينتزع النصر من الهزيمة ، وينبلج الفجر في الظلام .

ونريد شعراً يعيد لنا مجد الماضي ، ويشعرنا ذلّ الحاضر ، ويحفزنا على التمرد ، ويحملنا حملاً لنـــصنع المـــستقبل المجيد ..

نريد باختصار أدباً يكوّن عالم صغارنا وشبابنا الروحي والفكري ، ويستولي على عقولهم وقلوبهم ، ويرفعهم فوق إسفاف مجتمعهم ، ويجعل منهم روّاد الحياة الإسلاميّة المقبلة .

وهذا يَقِفُ أدباءنا –على قلتهم– أمام مسؤولية إسلامية خطيرة .. أمام مسؤولية الاستجابة لهذه الإرادة وتلبيـــة هذه الحاجة .

إنّ عليهم أن يصنعوا لنا بيئة ثقافية إسلامية ينمو بها صغارنا ، ويعيش فيها كبارنا ، وتعصمنا وتلهمنا وتدفعنا إلى العمل .

وإنه لجهاد يُدْعَون إليه ، ويلزمهم دينهم به .. جهاد كجهاد السيف يتوقف عليه مع غيره مستقبل الإسلام .